الباب السادس

الملك الشمس

بين حدائق التويلرى الرائعة وقصر اللوفر بباريس ، يقع ميدان كاروسيل الفسيح تحف به طنف (بواكى) جميلة كانت تصل اللوفر بقصر التويلرى قبل أن يذهب هذا الأخير فريسة للنيران التى أشعلها فيه الثوار سنة ١٨٧١ .

يعيد ميدان كاروسيل إلى الأذهان ذكرى أجمل وأبهى الحفلات التى خلدها التاريخ كدليل على أعظم ما وصلت اليه عقلية البشر فى الابتكار والتنظيم ، وهى الحفلات التى أقيمت فى ٥ يونيو سنة ١٦٦٢ وظلت ، مدى سنوات ، موضع أحاديث الناس فى كل أنحاء فرنسا والدول الأجنبية تثير حسد وغيرة ملوك أوروبا ، ذلك لأن لويس الرابع عشر قرر أن يضفى على هذه الحفلات التى سيشرفها بحضوره كل ما فى طاقة البشر من مواهب وفنون لكى تفوق أجمل وأروع ما سجله التاريخ القديم والحديث .

كان الناس جميعا يودون رؤية الملك الشاب : فالفرنسيون بدافع الإعجاب والحب ، والأجانب عن فضول وشوق وربما عن شىء

من الخوف والرهبة . فقد استطاع هذا العاهل الشاب ، وهو لم يتعد الرابعة والعشرين من عمره ، أن يقضى على المشاكل الداخلية العويصة وأن يوفق إلى زواج ناجح موطد للسلام ، وأن ينظم مالية البلاد ، وأن يعمل على توفير أسباب السعادة والرفاهية للشعب جميعه . فبدت على الدولة ، التى أنهكتها الحروب الخارجية والحروب الأهلية ، دلائل الانتعاش والرخاء . وكانت الغاية من إقامة حفلات ومباهج تتكلف الملايين من الجنيهات ترمى إلى جذب أكبر عدد ممكن من السائحين الأجانب . وهذا ما فكر فيه وزير المالية « كولبير » الذى أدرك بثاقب نظره أن حضور السائحين إلى باريس سيدر على خزانة الدولة أكثر مما تنفقه على الحفلات وعلى الكاروسيل .

أراد لويس الرابع عشر أن يظهر فى زى أمبراطور رومانى : فكان يرتدى سترة من الفضة الخالصة مطرزة بالذهب ومرصعة بقطع الماس النادر ، تعلوها ياقة من نفس المعدن مكونة من أربعة وأربعين وردة من الماس متصلة ببعضها بمقابض من الماس . وتربط هذا الدرع المتلألىء ثلاثة أشرطة مرصعة بمائة وعشرين وردة من الماس كبيرة الحجم كما كان يضع فوق رأسه خوذة من الفضة عليها أوراق من الذهب يزينها ماستان كبيرتان وعلى جوانبها اثنتا عشرة وردة من الماس يحيط بها شريط من اثنتى عشرة وردة أخرى وتعلوها مجموعة من الريش بلون النار .

وكان ينتعل خفا من الديباج مقصبا بالفضة وموشى بالذهب ،

وكان حسامه من الذهب المرصع بعدد لا يحصى من قطع الماس لا يمكن معها رؤية الذهب . وكان يمتطى صهوة جواد أصيل مزين بالريش الزاهى الألوان وعلى رأسه نجوم من الماس .

وظهر الملك فى الحفلات بهذا الزى الرائع يحيط به أباطرة العجم والأتراك والهنود ورؤساء الدول والأمراء وكبار رجال الدولة ، وشاعت بين الناس هذه العبارة « أن أجزاء العالم الخمسة قادمة تؤدى فروض التجلة والولاء إلى أمبراطور الرومان » .

ومما استرعى الانتباه فى هذه الحفلات منظر جميل للشمس شوهد فى كل مكان ، على الأعلام والدور ، وعلى الجدران ، وعلى الأبنية وعلى براذع الجياد . كان منظر الشمس الفاتنة إما مرسوما أو منسوجا على الأعلام أو محفورا على الجدران . ولا تزال هذه النقوش ظاهرة للعيان حتى الآن فى قصر فرساى .

وقد أبدع الفنانون أيما إبداع فى إعداد الرسوم والنقوش واللوحات للشمس ، التى اعتبرت كرمز عن الملك ورجال عصره . وبذلك أطلق على لويس الرابع عشر اسم « الملك الشمس » .

انتقد خصوم الملك هذا الشعار الذى اختاره لنفسه وعدوه دليلا على الكبرياء . فدافع أنصاره عنه بأن فى هذه الاستعارة صورة حقيقية لعهد من عهود الحكم الذهبية النادرة . فقرص الشمس يرمز إلى الملك كما ترمز الأشعة إلى العظماء النابغين فى كل ميادين النشاط البشرى ، وهم الذين عاصروا الملك وعاونوه وكونوا معه مجد وعظمة

فترة طويلة من الزمن ، تعتبر من أزهى عصور التاريخ ، كما كانت عصور بركليس وأغسطس قيصر وليون العاشر .

وعارض آخرون فى هذا الرأى فقد اعتقدوا أن الملك لم يبلغ هذه الدرجة من العظمة والمجد بشخصه ومجهوده وحده ، وإنما بفضل العلماء والأدباء والفنانين ورجال الفكر والرأى والقواد والخطباء الذين عاشوا فى عهده ولكن رجال الحاشية الملكية فى فرساى دحضوا هذا الزعم بقولهم : إن الفضل يعود إلى الملك وحده لأنه عرف كيف يشجع العظماء الذين عاصروه وأحاطوا به . فكان هو الشمس وكانوا هم أشعتها .

والواقع أن عصر لويس الرابع عشر لم يكن ليتجلى كذلك ، فى نظر العالم لو لم تظهر فيه هذه المجموعة من الأفذاذ الموهوبين فى كل أوجه النشاط البشرى . على أنه إحقاقاً للحق ، يجب ألا يغرب عن البال أنه لولا الملك الذى عرف كيف يشجعهم ويمجد أعمالهم ويجمع شملهم ويوجد الانسجام والتعاون بينهم ، لما استطاعوا بلا شك أن يفيضوا هذا النور الذى أضاء فرنسا والذى لن يخبو ، طالما أنه يوجد فى هذا العالم من يرغب فى التزود من ثقافة مستنيرة أو رأى مستنير ،

وهنا يتجه الفكر إلى مؤلفات راسين وموليير وأعمال ايران وريشار وغيرهم . ولكن قبل ذلك يجب القول أنه لولا حماية لويس الرابع عشر لهم ووصاياه وتعاليمه وحبه للآداب والفنون

وعقليته المستنيرة . واهتمامه برفع المجتمع لما استطاع أحد منهم أن يستغل مواهبه ويشحذ قريحته وعبقريته إلى الحد الذى وصل اليه .

ولما كان تألق هذا النور مما يبهر الأبصار ، فقد كان كل واحد منهم يعمل للمجموع . فألفوا جميعا وحدة لاتنفصم ، وهو ماتمثله الشمس بأشعتها ، فلا توجد شمس بلا أشعة ، ولا أشعة بلا شمس

وهنا نعرض هذه الأشعة التى تمثل رجال الفكر والفن والعلم والتى أوجدتها الشمس التى ترمز إلى لويس الرابع عشر

لقد تجلى نبوغ كولبير فى الشئون المالية والإقتصـــادية فقام بإصلاحات عمرانية كان لها أثرها فى حياة الشعب ومما يجدر ذكره أن باريس كانت قبل عهد كولبير أقل مدن العالم أمناً وسلاما ، كان التسول مهنة منظمة . وكان المتسولون والمشوهون سواء عن حقيقة أو مجرد ادعاء ، يصطفون بشكل مفزع فى كل مكان . فألف كولبير بوليسا خاصا جمع المتسولين وأوجد لهم أعمالا يتكسبون منها ، وانشأ المستشفيات والمصحات وملاجىء للعجزة جعلها على عاتق الكنيسة تنفق عليها من ريع الأملاك المخصصة لها ، وأضاء باريس كلها وهى التى لم يكن فيها إلا شمعة واحدة موضوعة فى مصباح مقام فى ميدان شاتيلية

وقام كولبير بعمل جليل آخر ، وهو جمع كل القوانين والعادات التقليدية فى مجموعة واحدة منسقة سميت بإسم « كود لويس » لايزال معمولا بأكثرها للآن بعد تعديل طفيف يتمشى مع روح العصر .

ولم ينس كولبير أن الزراعة هى مصدر الثروة والرخاء . فعنى بها بتعضيد قوى من الملك ، وعمل على تيسير أسباب الحياة للفلاحين وبذل مجهودات جبارة لتيسير الشئون الاقتصادية ونقل الحاصلات والبضائع بأن أصلح شبكة الطرق الزراعية التى كانت خربة تماما ، وحفر الترع ، ومنها قنال البحرين التى تربط المحيط الأطلسى بالبحر الأبيض . ووضع تصميم المشروع المهندس العبقرى ، « ريكيه » وأحيا البحرية التجارية الفرنسية . وحمايتها أنشأ أسطولا حربيا قويا وموانىء جديدة وأصلح الموانىء القديمة واهتم بالمستعمرات مثل كندا والانتيل وتيرينف (الأرض الجديدة) ومدغشقر . وأما المستعمرات التى يوجد فيها الرق فوضع لها القانون الأسود الذى يخفف إلى حد كبير القيود المفروضة على الزنوج ويهيىء لهم سبل الحياة .

ولم يقصر كولبير اهتمامه على الزراعة فحسب بل عنى كل عناية بالصناعة أيضا لأنه لم يرض أن يرى فرنسا تعتمد على الخارج فى استيراد كثير من المصنوعات ، فأوجد الصناعة الفرنسية ، فظهر مصنع بوفيه المشهور للمفروشات ، وجدد مصانع جوبلان المعروفة فاستأنفت أعمالها بكل نشاط وازدهرت صناعات جديدة فى كل أنحاء فرنسا .

وقصارى القول أن كولبير أحدث انقلابا اقتصاديا سلميا ، فأصبحت فرنسا دولة صناعية كبيرة لا تكفى نفسها فحسب بل وتصدر منتجاتها إلى الخارج .

ولا يجب أن ننسى فى هذا المقام فضل « لوفوا » فى تنظيم الجيش والإدارة الحربية فقد فرض النظام والطاعة فى الجيش . وقرر الزى الرسمى الإجبارى لكل الرتب ووضع قواعد الترقية للضباط ، ونظم وسائل التموين وانشأ المستشفيات الحربية الثابتة والمنتقلة .

ولا يفوتنا أن نشيد بكفاءة (ليون) فى الشئون الخارجية التى أدار دفتها بكل فطنة ودراية تحت إشراف الملك الشخصى ، وأظهر مقدرة نادرة ومعرفة واسعة ، فجعل لفرنسا مكانة محترمة فى نظر كل الدول الأجنبية .

واشتهر من قواد هذا العصر كونديه وتورين والماريشال دى لكسمبرج ، والماريشال دو كاتينا ، الذى كان يسميه جنوده الأب المفكر ، لأنه كان يعد العمليات بمنتهى الدقه الحربية مهما كان شأنها ، والماريشال فابير وكان من أصل وضيع واستطاع أن يصل الى أرفع الرتب العسكرية لاستقامته وشجاعته وكفاءته ومواهبه ، والماريشال دوفيلار الذى أنقذ فرنسا عندما تحالفت ضدها أوربا كلها وعزمت على إهلاكها ، كما استطاعت البحرية الفرنسية أن تحرز انتصارات رائعة على أعظم قوتين حربيتين فى العالم فى ذلك الوقت وهما انجلترا وهولاندا ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى القوادالبحريين المحنكين الذين نذكر منهم دوكين ، والكونت دى تورفيل الذى أصبح ماريشال فرنسا ، وجان بار وكان ابن بحار فرنسى من ديبب ورقى الى رئيس أسطول ورفعه الملك إلى مرتبة النبلاء لأنه فى موقعة واحدة أحرق

ثمانين سفينة انجليزية وقتل بيده أميرالا من الأعداء . ودوجين تروان وكان من أسرة تشتغل ببناء السفن فى سان مالو ، وأصبح رئيس عام للأسطول وتألق نجمه فى كل البحار .

وفى ميدان الأدب والفنون أولى لويس الرابع عشر الأكاديمية الفرنسية التى انشأها (ريشيليو) كل اهتمام ، وأسس الأكاديمية الصغيرة التى أصبحت فيما بعد أكاديمية الخطوط والنقوش الجميلة . وأكاديمية الحفر والعمارة . ولم يكتف بتقرير معاشات الأدباء والفنانين فحسب بل ساعدهم ووجههم التوجيه الصحيح المنتج ، ومنح إعانات ومعاشات ومرتبات لعلماء وكتاب وفنانين ومثالين فى خارج فرنسا .

ونذكر أنه لما نال الفلكى الإيطالى ڤيڤيانى عطايا لويس الرابع عشر ، شيد فى فلورنسا بيتا كتب على واجهته بأحرف من ذهب هذه الجملة :

« بيت من هبة الله » (أشارة إلى اسم الملك الأصلى . وهو لويس هبة الله .)

لم تكن هبات وعطايا الملك ترمى فقط إلى تشجيع العلوم والآداب والفنون فى أوربا بل إلى أكثر من هذا ، فإن لويس كان يطمع من وراء ذلك إلى أن يوجد لفرنسا خارج تخومها كثيرا من الأصدقاء والمعجبين من ذوى النفوذ بحيث يكون لصوتهم المسموع بين مواطنيهم ، ودعايتهم لفرنسا ما يجلب لهـــا عطف ومحبة

وإعجاب كل الدول . إذ لم يكن يخفى عليه أهمية وقوة الراى العام الدولى .

وأما أصحاب المجد الأدبى والفنى فكان فى طليعتهم الشاعر « كورينى » الذى بلغ الذروة بدرره الرائعة : السيد وهوراس . وكذلك المؤلف المسرحى راسين الذى تعهد التراچيدى بفنه وموهبته فكانت مسرحياته الرائعة الخالدة التى تمثل بنجاح هائل فى مسرح أوتيل دى بورجونى تجذب إليها الأسرة المالكة ورجال الدولة ، وعين الملك لراسين معاشا ثابتا وأجزل له العطاء وعهد اليه بوظيفة فى القصر وبذلك كان دائم الاتصال بالملك والبلاط .

وكان الشاعر موليير مؤلف الكوميدى الذائع الصيت موضع رعاية وتشجيع الملك . ومثل أمامه كل كوميدياته الانتقادية منها . البجيل . تارتوف . مدرسة النساء . طبيب رغم أنفه وكان فى أوقات العسر والضيق يجد لدى الملك المساعدة والعطف والحماية من أكبر الشخصيات نفوذا فى الدولة والذين كان ينتقدهم بمرارة لاذعة .

ويأتى بعد ذلك بوالو ، ثم شارل بيرو مؤلف القصص الثقافية للشباب . وكان موظفا فى مصلحة المبانى وتركها واشتغل بالأدب ، وهو الذى أوحى إلى شقيقه كلود بمشروع أعمدة اللوفر ، ولافونتين مصنف الحكايات الخرافية ، ومدام دى لافاييت مؤلفة القصة المشهورة « أميرة دى كليف » ومدموازيل « دى سكودرى » التى وجهت الشعب إلى القصص الجغرافية عن بلاد تاندر ، والعالم

كورنيي

Corneille

راسين

Racine

موليير

Moliere

obeikandl.com

لافونتين

La Fontaine

فينلون

Fenelon

بوسويه

Bossuet

obeikandl.com

اللغوى « فوجلا » ولارشفوكو صاحب الحكم والأمثال، والفيلسوف مالبرانش والشاعرين ريتار وشابيلان .

ويفخر العصر أيضاً بالخطيب المفوه « بوسويه » الذى ملك زمام الخطابة واكتسح أمامه المشعوذين والخطباء المأجورين المدنسين وأصبح مؤدب ولى العهد ، ويزهو أيضاً بالأديب فينيلون مؤدب دوق دى بورجونى ، ومؤلف قصة تليماك — وهاهى متاحف فرنسا وقصورها تشيد بعظمة وفن بوسان ولزوير ولبران الرسام الأول للملك ومدير أكاديمية النقش والرسم ومدير جوبلان وميشار ، وديجو ، وفانو ولموان ، وفيليب دى شامبانى .

وأعظم مثالى العصر سارازان وبوچين وجيراردون وكويسيفو وليكوستو .

وفى الموسيقى «لولى» ، وقد بدأ حياته خادما لدى إحدى الأميرات ثم التحق بفرقة الموسيقى الخاصة بهذه الأميرة ثم فى موسيقى الملك وأصبح مديرا الأكاديمية الملكية للموسيقى ، وكامبار مؤلف كثير من الأوبرات الخالدة ، ودستوش . وقد جدد هؤلاء فن الموسيقى

وفى فن المعمار « ليفو » الذى بدأ قصر فرساى ، ومانسار الذى أتمه ، والأخوان بيير ولنتر ، المختص فى نقش مبانى المتنزهات وكان فى أول أمره بستانيا نابغاً وعنى بتجميل وتنسيق متنزهات فرساى وسان كلو ، ومارلى ، وفونتنبلو .

قد نال هذا الرجل شهرة عظيمة فى فنه فلم يكن الفرنسيون

وحدهم هم الذين يتنافسون فى جذبه للعمل فى تنسيق حدائقهم بل إن إيطاليا كانت تزهو وتفخر بفنه ومواهبه ، فدعته إليها للعمل لدى البابا فرحل إليه بإذن من الملك

هذا هو عرض خاطف لعظماء الرجال الذين شيدوا مجد فرنسا وعظمة عصر لويس الرابع عشر ، فهم جديرون بأن يكونوا أشعة الملك الشمس

---

obeikandl.com

الفصل السابع

الملك فى فرساى

ما أبدع هذا المكان وما أجمله
أننا هنا فى موطن السعادة الحقيقية
« مدام دى مانتينون »

يجتذب قصر فرساى الآف السائحين من شتى أنحاء العالم لرؤية هذه الأعجوبة الفنية التى طبقت شهرتها الآفاق ، والتى تعتبر أقوى شاهد على مجد لويس الرابع عشر وعظمة عهده ، ولقد وضع الملك تصميم هذا القصر فأخذ كل الملوك ورؤساء الدول من القرن السابع عشر يقلدونه ويحذون حذوه ، ذلك لأن من يشاهد القصر لايقف عند حد الإعجاب به وبمؤسسه ، بل يعود إلى وطنه وفى قرارة نفسه رغبة جامحة فى إنشاء قصر على طرازه ، فقامت فى معظم الدول قصور شاهقة على طراز فرساى ولو على نطاق ضيق ، وانما بعيدة

كل البعد عن أن تضارعه فى أبهائه وعظمته . وهذا يدل على مدى تأثيره فى نفس كل من يزوره ويتأمل فنه ونقوشه الخلابة ، ولكن يجب أن يعلم أن الملك لم يكتف بإصدار أمره الى مهندسيه بالعمل والبناء بل فعل أكثر من ذلك ، إنه راقب وأعد بنفسه كل شيء . فلم تفته أدق التفصيلات فى هذه العمارة الهائلة التى رسم مشروعها بيده وحدد نوع المواد التى أراد أن تستعمل فى كل جزء منه .

لم تبدأ إقامة الملك الرسمية فى قصر فرساى إلا فى سنة ١٦٧٠ . وقبل ذلك التاريخ كان يمضى فيه فترات متقطعة أما لتغيير الهواء كما فعل عقب إصابة الملكة بالحصبة سنة ١٦٦٤ وأما لإقامة الحفلات الرائعة فيه ، وأخيرا قرر أن ينتقل اليه نهائيا ومعه أسرته وحاشيته ، كما نقل إليه مقر الحكومة .

لم يكن فى فرساى قبل ذلك أى شيء سوى قصر لويس الثالث عشر الصغير . ولم يكن هناك ماء أو مساكن أو حدائق ، فأعد لويس الرابع عشر فرساى إعداداً رائعاً ، ووضع الآت لجلب الماء إليه من مارلى ، فاقبل الناس من تلقاء أنفسهم ليقيموا حول الملك . فشيدوا الدور والمبانى والملاهى ، حتى ظهرت مدينة فرساى العظيمة التى لا تزال قبلة أنظار السياح الأجانب .

كان لويس فنانا بطبعه محبا للأزهار والأشجار والطيور والمياه الجارية فعنى عناية كبيرة بتنسيق حدائق فرساى لكى تصبح أجمل حدائق العالم ، فأكثر من أحواض المياه وغرس الزهور ، والأشجار

الجميلة ورأى أن ينمو فى كل مكان الياسمين والزنبق والورد وأشجار البرتقال والليمون ، وأن توضع أقفاص للطيور النادرة الزاهية الألوان .

وأحاط نفسه فى هذا القصر بأسرته وحاشيته ووزرائه بمكاتبهم وموظفيهم ، ومنه أرسل البريد الى أقصى أنحاء المملكة وإلى العواصم الأجنبية فأصبحت فرساى عاصمة سياسية أسست فى وقت لايوجد فيه تليفون أو تلغراف أو سيارات أو سكة حديد .

وكانت حياة الملك فى فرساى تسير على نمط ثابت تبعا لنظام لايتغير مهما كانت الظروف ، وصفها الكاتب سان سيمون بكلمة الميكانيكا الملكية » . وفى هذا الوصف مايدل على أن الحياة كانت عبارة عن آلة حقيقية ، استمرت على العمل حسب النظام الموضوع لها ، الى أن لفظ الملك أنفاسه الأخيرة .

فى الساعة الثامنة صباحا — صيفاً وشتاء — كان خادم الملك الخاص يدخل غرفة نوم ذلك العاهل العظيم ويرفع الستائر عن النوافذ ويتقدم نحو سريره ويقول : مولاى ! لقد حل الموعد . ثم يفتح الباب فتدخل المربية وتقترب من الملك وتقبله فى وجنتيه إيذانا بحلول النهار وابتداء العمل ، ثم يأتى الطبيب الخاص والجراح يتبعهما خدم يسمون « الخدم الزرق » نسبة إلى السترة الزرقاء التى كانت تميزهم ، فيغسلون وجه الملك وجسمه بالماء المعطر ويغيرون ملابسه ، وعند

مايتمون عملهم ، يأتى كبير الأمناء ويقدم لمولاه الماء المقدس والكتاب المقدس فيصلى ويقرأ إنجيل اليوم

وبعد الصلاة يفد الأمراء والمقربون من الملك فيجاذبهم أطراف الحديث وهو مرتد رداء النوم وعلى رأسه خصلات من الشعر المستعار وتوجد له صور كثيرة تمثله فى هذا الوضع ، وقد اعتاد استعمال الشعر المستعار لأنه أصيب بالصلع وهو فى سن مبكرة واقتدى الرجال بملكهم فأخذوا يزينون رؤوسهم بالشعر المستعار ، فأصبح من مستلزمات الحياة

وكان الملك يبالغ فى العناية بنظافته فى وقت كانت النظافة فيه بدائية تماما ، ذلك لأن القرن السابع عشر لم يعرف القواعد الصحية ، فلهذا اعتبر أنظف رجل فى المملكة ، لأنه كان يأخذ حمامات ساخنة يوميا ، وهذا ترف لم يكن ميسوراً إلا لأفراد قلائل.

وبينما يأخذ الملك فى ارتداء ملابسه الرسمية ، يدخل كبار الموظفين المتصلين به ومعهم من يسمح لهم بإذن خاص بالدخول فى الغرفة الخاصة ، فيكلم كل واحد منهم ، فينصرف عندما تنتهى مهمته ، ثم يأخذ فترة راحة قصيرة يستقبل فيها مهندسيه ، ومنظم حدائقه الفنان « لينوتر » ، ولهؤلاء حرية الدخول عليه فى أى وقت دون حاجة إلى إذن أو مراعاة قواعد العرف والأتيكيت .

وبعد الإنتهاء من هذه المقابلات والأعمال يتوجه الملك الى كنيسة القصر للصلاة ، ولا ينسى إداء هذا الواجب إلا عندما يكون

فى الحرب خارج فرنسا فى وفى طريقه إليها يتقدمه ضباط الحرس ويسرع إليه رجال البلاد وأصحاب المطالب الخاصة فيدنون منه ويلقون على مسامعه بطلباتهم وشكاياتهم ، فيرد عليهم بقوله : سأرى — سأرى . وكان بالفعل يرى ويفحص كل شىء فلم يهمل فى حياته أى طلب أو مظلمة أو شكوى لقوة ذاكرته ومعرفته له لكل شخص من موظفى فرساى . وكان يحدث أن يرى بعض الأفراد القليلى التردد على قصر فرساى . فيتعطف عليهم قائلا : لماذا لا نراكم هنا كثيراً ، كما لا يفوته أن يعاتب الموظفين الذين يتركون مراكز وظائفهم فى المدن البعيدة ويحضرون إلى فرساى دون داع ، ولو أنه كان يحب أن يرى حوله كبار موظفى الدولة من حكام مقاطعات ومأمورى أقسام ، لأن التنظيم الإدارى فى ذلك الوقت كان لضعفه يتطلب أن يعرف الملك شخصيا كل واحد منهم ، ويلم بفضائله وعيوبه دون وساطة رؤساء فكان يعرف دولاب العمل فى كل أنحاء المملكة .

وعندما تنتهى الصلاة يعود بنفس الموكب إلى مكتبه حيث يجتمع بالوزراء وقد يستمر اجتماعهم حتى الساعة الواحدة ، وهى ساعة الغذاء وفى أيام العيد يتقدم هذا الموعد ، ويتناول فى وجبة الغذاء ثلاثة أصناف وبعض الفاكهة ويشرب قليلا من الشمبانيا أو نبيذ بورجونيا المشهور .

وبعد الغذاء يغير ملابسه ويخرج أما للصيد أو للتنزه فى حدائقه أو لتفتيش المبانى .

لويس الرابع عشر يتنزه فى حدائقه

وفى شبابه كان يصيد الطيور وهو على صهوة جواده . ولكن بعد أن كسر ذراعه عند ماوقع ذات مرة ، فضل أن يستعمل عربة صغيرة تجرها أربعة جياد يقودها بسرعة فائقة ومهاره عجيبة ، وكان ماهرا فى التصويب وإصابة الهدف .

وفى العودة يغير ملابسه مرة أخرى ويستقبل رجاله أو يعمل فى مكتبه حتى الساعة العاشرة مساء وهى ساعة العشاء الذى يتناوله

مع الأسرة — وبعد ذلك تقام حفلات متنوعة من تمثيل مسرحية هزلية من مسرحيات موليير أو حفلة راقصة أو موسيقى أو ألعاب مختلفة تستمر إلى وقت متأخر من الليل .

لويس يصطاد

وفى الليالى التى تخلو من الحفلات كان الملك يمضى إلى مكتبه ، ويسمر مع أفراد أسرته ويذهب إلى فراشه حوالى نصف الليل وعلى هذا المنوال سارت حياته لا فى فرساى وحدها فحسب بل عندما كان يذهب إلى فونتنبلو ، أما فى قصر مارلى فإنها كانت تتحرر من بعض هذه القيود .

وظل لويس طول حياته مصابا بمرض خطير ، يعرف فى عالم

الطب باسم « الدودة الوحيدة » ولم يستطع اطباؤه شفاءه منها ، مع أنه عاش إلى سن السابعة والسبعين . فقد ثبت فيما بعد أنهم أساءوا علاجه وكانوا أربعة أطباء وصفوا بالجهل ولم يغب جهلهم هذا عن ذهن المؤلف المسرحى موليير ، فعند ماتقرأ الكوميديا التى كتبها عن جهل الأطباء نرى أنه لم يغال فيما كتب .

وكان لويس الرابع عشر يستقبل سفراء الدول الأجنبية بكل مظاهر العظمة والجلال ، فيجلس على أريكة فاخرة يحيط به الأميرات والأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة ، لكى يؤثر فى نفس السفير الأجنبى من جهة . ومن جهة أخرى تجعله يعدل عن التفكير فى الإقامة فى فرساى على أساس رفع الكلفة بينهما ، وهذا من الأمور التى يمقتها الملك لأنه كان يخشى من ورائها إفشاء أسرار قد ينجم عنها مالا تحمد عقباه .

وكان الملك يكثر من الرحلات إلى مختلف أنحاء فرنسا ، وقد قادته هذه الرحلات إلى مسارح العمليات الحربية ، وعندما تقرر ضرورة توخى الاقتصاد فى النفقات ، وافق الملك على التماس « لوفوا » الخاص بالعدول عن التنقلات ، فلم يعد يذهب إلا إلى فونتنبلو وشانتيي وكومبين ومارلى وفيدون ، لأنه كان فى رحلاته يصحب معه كثيرا من السيدات ويأخذ معه كميات كبيرة من الأطعمة والمشروبات وهذا يستلزم عدداً كبيراً من العربات والحرس والخدم فيتطلب نفقات باهظة .

وامتاز الملك باللطيبة والنبل والعطف ، حتى أصبح مضرب الأمثال ، فإنه لم يكن يتوان عن السؤال عن الضباط والجنود الذين يصابون اثناء خدمتهم له ، وكتب مرة إلى قائد جيشه الرسالة التالية :

« اعتنى كثيراً بالمرضى والجرحى ، وعبر لهم عن شعورى وعواطفى نحوهم ، وطمأنهم على حالهم وعلى أن جراحهم ستكون على الدوام خير تزكية لهم عندى ، وعليك أن تمنح كل جندى علاوة ، وأريد أن أعرف أسماء الممتازين منهم والذين أظهروا بطولة تستحق الذكر وكذلك أسماء المشوهين والعجزة . »

فشيد الأنقاليد للعجزة والمشوهين ، وفى أيام القحط والعوز كان يشترى الحبوب لتوزع مجانا على الفقراء

وكان لويس جم الأدب يحتمل النقد ويحب أن يحذو حذوه جميع المتصلين به . فقد حدث ذات يوم أن قدمت الى فرساى سيدة ريفية مسنه ، وعندما شوهدت اثناء ذهاب الملك الى الكنيسة ضج الجميع بالضحك ، ولاحظ الملك ذلك . فلم يقل شيئا ولكنه عندما وصل الى السيدة الريفية وقف وانحنى أمامها ، فكان درسا لمن تهكموا عليها .

ويروى ڤولتير القصة التالية :

رأت دوقة بورجوينا أثناء العشاء مع الملك ضابطا دميما فضحكت طويلا من دمامته — ولكن الملك اسكتها بأن قال لها بصوت عال : انني أجده ياسيدتى من أجمل رجال الدولة لأنه من أشجع شجعانها

وحدث أثناء العمل فى قصر مارلى أن فقدت امرأة عجوز تدعى « بارب كورنييه » حمارها الذى تؤجره للعمال . فلما علم الملك بذلك اهتم بهذا الموضوع كعادته وأمر بأن تعطى للمرأة تعويضاً عما فقدت . فجاء فى حسابات القصور الملكية هذه الثبذة : « اجنيها إلى بارب كورنييه التى نفق حمارها أثناء العمل فى مارلى » أما الحفلات الرائعة التى كانت تقام فى قصر فرساى ، فانه فى قاعاته الفسيحة كانت أضواء مئات الشموع الكبيرة فى الثريات الهائلة المصنوعة من بلور مدينة البندقية ، تبهر الأبصار حقا ، وكان هذا الضوء المنعكس على جمهور السيدات والرجال فى ثيابهم الفاخرة من القطيفة الموشاة بالذهب والفضة يعطى منظراً يأخذ بمجامع القلوب ، وعندما يعلن الضابط قدوم الملك يسود صمت رهيب ويحضر الملك ويجلس فى مقعده الوثير فتبدأ الملاهى وكانت عبارة عن تمثيل من فرقة الكوميدى فرانسيز ، وأحيانا الموسيقى أو الرقص أو الباليه

وعرف الملك بالمهارة فى الرقص وكان يشترك فيه أيام شبابه ، ويروى عنه أنه استمر مرة يرقص طول الليل ومع ذلك لم يتأخر لحظة واحدة عن أعماله وواجباته فى اليوم التالى فى مواعيدها المحددة مما أثار دهشة الغرباء عن القصر

وكانت ضروب اللهو والتسلية متنوعة فى فرساى ولم يكن مسموحا لأحد أثناء اللعب والمرح بالكلام فى الشئون العامة وفى السياسة.

ومن المناظر الجميلة فى الحديقة منظر الترع التى تنساب عليها قوارب

الجندولا ، تزينها الأنوار البديعة وتعزف فيها الموسيقى وفيها السيدات والرجال ، بينما تقام على الشواطئ ألعاب نارية تخرج منها أنوار متعددة الألوان تعلو فى الجو وتتعانق ، فيحدث انعكاسها منظراً فاتناً يضفى على التماثيل المقامة تحتها ابتسامة خلابة يعجز القلم عن وصف روعتها .

ومما يؤثر عن لويس الرابع عشر حبه الشديد للمدح والإطراء والملق ، فتفانى كل المتصلين به فى إلقاء عبارات الثناء والإعجاب على مسامعه لكى يحظوا بعطفه ورضاه ، فكان يعتبر هذا المدح من مستلزمات حياته كالهواء والماء والطعام ، لا يستطيع أن يعيش بدونه حتى قيل « إن الملك يغره الثناء » ولا بأس من ذكر بعض النوادر :

كان الملك يتنزه ذات ليلة فى حدائقه فرأى طريقا تحف به أشجار بدون تنسيق مما جعل المنظر مشوهاً ، وكان يرافقه دوق أنتان مدير القصور الملكية ، وفى صباح اليوم التالى توجه الملك إلى نفس الطريق فلم يجد للأشجار أثراً فاستدعى الدوق وسأله عما حدث ، فأجاب بكل زهو قائلا : كيف اجترأ هذا الطريق على الظهور أمام جلالتكم وهو فى حالة مشوهة ، لا شك أنه لم يعجبكم لأنكم يجب ألا تقع أنظاركم إلا على كل ما هو جميل .

وكان الملك يتنزه ذات يوم فى حدائق مارلى مع الأب بولينياك ، وفجأة اكفهر الجو وأخذ المطر يتساقط فقال الملك للأب إنه يريد العودة إلى القصر لئلا يتسخ رداءه الجميل من المطر

فما كان من الأب بولينياك إلا أن قال بكل بساطة : لا داعى للعودة يا مولاى لأن مطر مارلى لا يبلل ملابس الملك .

* * *

واهتم الملك بالشعر والقصائد فى وقت ما وأخذ ينظم بنفسه بعض الأبيات فألف قصيدة غزل رأى أنها كثيرة الأخطاء ولامعنى لها .

وبينما كان يقرؤها مرة أخرى ، وصل الماريشال دى جرامون وكان مشهورا ببراعته فى التملق للملك حتى قيل عنه إنه أعظم متملق فى فرنسا ، فقدم له الملك القصيدة التى كتبها وقال :

اقرأ قصيدة الغزل هذه وقل لى بعد ذلك عما إذا كنت قد قرأت فى حياتك قصائد بمثل هذه السخافة والوقاحة ، فأنت تعلم أننى أنظم أشعاراً ولهذا يبعث لى الكثيرون بقصائد وأشعار من كل نوع .

وبعد أن قرأها الماريشال التفت إلى الملك وقال : إن كلام جلالتكم مقدس بدون أدنى شك ، وحكم جلالتكم على الأمور إنما هو حكم مقدس حقا ، فالواقع أن هذه أسخف وأوقح قصيدة قرأتها فى حياتى .

فضحك الملك كثيراً وقال : ألا ترى أيضاً أن مؤلفها كثير الإعجاب بنفسه وأحمق فأجاب الماريشال : إنه يا مولاى لا يستحق غير هذا الوصف الدقيق

قال الملك : إننى مسرور حقا لأنك تكلمت بكل صراحة ، فأنا الذى نظمتها . ذهل الماريشال وقال : يالالخيانة ، التمس من جلالتكم إعادتها إلى ، لأننى قرأتها بسرعة وبدون تروى . فرد الملك قائلا : كلا ، يامارشال لن أعيدها اليك ، فإن الكلمات الأولى هى التعبير الطبيعى لما يجول فى الخاطر

وقد ابتهج البلاط مما حدث للماريشال وانتشرت القصة فى كل فرنسا ، وأصبحت موضع حديث الناس وسرورهم

وكان الملك عندما يسأل أحد رجال الحاشية المدعو « دوز » عن الوقت يجيبه قائلا : إننا فى الوقت الذى يرضى جلالتكم

* * *

ومنح دوق مين ذات مرة أجازه عن تلقى دروسه من مؤدبه لمناسبة الاحتفال بالانتصار فى حرب ، فذهب يشكو إلى الملك قائلا: مولاى ، إننى سأصبح جاهلا ، ولن أتعلم شيئاً لكثرة الأجازات التى تمنح لى فى كل مرة تكسبون فيها معركة .

ولم يشذ عن خطة الإفراط فى مدح الملك والتملق إليه سوى « لينوتر » مدير الحدائق الملكية . فقد كان رجلا صريحا جريئاً يجهل فن المداهنة والملق ، ولم يغضب الملك من صراحته لأنه كان يجده على حق فى كل ما يقول فلما عاد هذا الرجل من إيطاليا حيث انتدب للعمل فى حدائق البابا ، صحبه الملك إلى حدائق فرساى ليريه طريقا من الأشجار على شكل أعمدة أنشأه مانسار أثناء غيابه .

وكان لويس الرابع عشر هو صاحب الفكرة فى إنشاء هذا الطريق ووضع نظامه وتنسيقه . وأراد أن يعرف رأى لينوتر . ولكن هذا الأخير ظل صامتا ، فدفعه الملك إلى الكلام ولكن بعد فترة صمت طويلة قال :

حسنا . ماذا تريد يا مولاى أن أقول ، لقد جعلتم من هذا البناء بستانياً فأعطاكم صنفاً من حرفته .

لم يكتف الملك بقصر فرساى الهائل وبقصر مارلى البديع ، بل

أنشأ أيضاً قصر تريانون الرائع ، وكان يراعى أن تكون هذه القصور تحفاً فنية خالدة تشهد بعظمته ، ولهذا تفانى فى العناية بها ، وأبدع فى تنسيق وتنظيم حدائقها بما وضعه فيها من تماثيل ، وجبلايات وشلالات ، وأزهار نادرة ، وطيور جميلة ، وكان يتعهدها بنفسه ويشرف على كل كبيرة وصغيرة فيها .

وأقيم له وهو على قيد الحياة تمثالان كبيران فى باريس ، وضع أحدهما فى ميدان النصر والآخر فى ميدان ڤاندوم .

وصنع التمثال الأول على نفقة الماريشال «لافيياد» الذى خصص أيضاً مبلغاً من المال لإضاءة مصابيح توضع طول الليل حوله ، وقد دمر هذا التمثال سنة ١٧٩٠ وكان عند قاعدته أربعة تماثيل صغيرة لأربعة أرقاء ، وتوجد هذه القاعدة للآن فى الانڤاليد . وأما الثانى فقد قدمته مدينة باريس تكريماً للملك .

الباب الثامن

أيام المجد

كان لويس الرابع عشر يكرس لتصريف أمور الدولة الوقت الذى حدده لها فى برنامجه اليومى ، ولم يقصر فى هذا الواجب لحظة واحدة بالرغم من ولعه بالصيد وإفراطه فى اللهو والمرح .

ورأينا أنه استطاع مع كولبير أن يخفض الضرائب ويزيد الإيرادات فعم الرخاء والثراء بين الشعب ، كما أنه أولى الشئون الخارجية كل اهتمامه لتحظى فرنسا بالمقام الأول بين دول أوربا ، وللتدليل على ذلك نروى حادثين وقعا سنة ١٦٦٨ وترتبت عليهما نتائج عظيمة الأثر .

حدث الحادث الأول فى لندن ويتلخص فى أنه حينما قامت السويد بتعيين سفير لها فى لندن ، رأى سفراء الدول الأخرى فى العاصمة البريطانية أن يستقبلوه بكل مظاهر العظمة والإجلال ، فكان لزاما على الكونت ديستراد سفير فرنسا والكونت دى فانفيل سفير أسبانيا أن يشتركا فى حفلة الاستقبال ، وفى اليوم المحدد توجه كل سفير فى موكبه الحافل يصحبه المساعدون والملحقون والموظفون والحرس الخاص ، إلى الميناء لاستقبال السفير الجديد وتحيته باسم دولته .

وبعد أن نزل السفير وحيا مستقبليه ، استقل مركبته فى موكبه الخاص إلى دار السفارة السويدية .

ثم أخذت المواكب المختلفة تتهيأ للمسير ، ولم يكن هناك نظام يحدد طريقة العودة . وشوارع لندن ضيقة بحيث لا تسمح لموكبين أن يسيرا جنبا الى جنب . وكان كل من ملك فرنسا وملك أسبانيا ، قد أمر سفيره بأن يكون موكبه فى طليعة سائر المواكب .

وعند مدخل الشوارع الضيقة ، حاول كل من السفيرين ، تنفيذا لأوامر مليكه ، أن يشق طريقه قبل الآخر ، فاصطدمت المركبتان وبادر السفيران بالنزول فى الحال ، وامتشق كل منهما حسامه ، وأخذ يبارز زميله ، فانضم إلى كل واحد مساعدوه وموظفوه وحراسه ، وكذلك رعاياه ، ودارت معركة استخدمت فيها السيوف والعصى .

وكان الانجليز يشهدون هذه المعركة وهم أشد ما يكونون اغتباطا وطربا ، على أنهم ظلوا فى موقف المحايدين وكانت المعركة متعادلة فلم يتغلب فيها أحد على الآخر ، واستمرت كذلك بعض الوقت حتى استعان سفير أسبانيا بفريق من بحارة نهر «التايمز» المتعطلين ، وكانوا أشداء أقوياء ، وعلى استعداد لتنفيذ أى أمر لقاء أجر معلوم ، فتناولوا بحاذيفهم ، وأخذوا يشبعون الفرنسيين ضربا وتقتيلا حتى خارت قواهم . وبذلك انتصر سفير أسبانيا ، ومضى بموكبه فى الطليعة كما أمره مليكه ، وتبعه موكب السفير الفرنسى ، وكانت مركباته تغص بالجرحى والقتلى .

ووصل السفير الفرنسى إلى داره وهو شديد الحنق والغضب ، وكتب تقريرا مفصلا بالحادث ، بعث به إلى لويس الرابع عشر ، ملك فرنسا القوى .

أما سفير أسبانيا فكان يزهو بانتصاره ، لأنه عد هذه المشاجرة فى أحد شوارع لندن موقعة حربية عظيمة . ومع أن الانجليز كانوا يكرهون الفرنسيين فإنهم لم يعلقوا على الحادث بشىء ما ، وحافظوا على حيادهم .

وإذ نمى الخبر إلى مسامع لويس الرابع عشر ، وكان متزوجا من آن دوتريش ابنة فيليب الرابع ملك أسبانيا ، غضب أشد الغضب ، وهدد والد زوجته بإعلان الحرب عليه ، إذا لم يقدم الترضية الكافية.

وكان ملك أسبانيا مشتبكا مع البرتغال فى حرب ضروس طويلة أضعفت دولته ، وقضت على جميع موارده ، فلم يكن والحال هذه قادرا على الاشتباك فى حرب جديدة ، ولهذا فإنه سلم لملك فرنسا بكل ما أراده منه ، وقرر إبعاد السفير فانفيل ، مع أن كل جريمته أنه عمل كل ما وسعه لتنفيذ أمر مولاه ، وكان أن أرسل سفيرا فوق العادة الى « سان جيرمان » ، حيث كان يقيم لويس الرابع عشر ، ليخبره أن سفراء فرنسا سيكونون دائما فى الطليعة وفى المقدمة ولن يتخطاهم أحد ما .

ووقع الحادث الثانى فى روما خلال العام نفسه ، وتفصيل ذلك أن « الدوق دى كريكى » كان سفيرا لملك فرنسا لدى البابا الكسندر السابع ، وقد عرف عن هذا البابا أنه لا يحب الفرنسيين ، ولهذا كان شقيقه ماريوشيجى ، يبذل كل مافى وسعه لإثارة الشعب الإيطالى ضد فرنسا ، وقد نجحت محاولته الى حد ما .

قام حرس البابا فى أحد الأيام ، ويتألف من جنود كورسيكيين ومعهم بعض الدهماء ورجال البوليس ، بمهاجمة قصر « فارنيس » مقر السفير الفرنسى وفى نفس الوقت كانت موكبة السفير الفاخرة تجتاز فناء القصر فهوجمت وقتل أحد خدم السفير

وهنا خرج السفير إلى الشرفة وأطل على المهاجمين لتهدئتهم ، فقابله الحرس الكورسيكى بإطلاق غداراتهم .

وكان البابا فى ذلك الوقت يتمتع بنفوذ عظيم وكانت له سلطة روحية وزمنية لها شأنها وكان يحكم روما وبعض المدن المجاورة لها ، وكان الملوك إذا أرادوا الشكوى من بعض تصرفاته يرسلون مندوبين دبلوماسيين للتفاهم على كل ما يريدون .

وحينما سمع لويس الرابع عشر بنبأ الاعتداء على ممثله فى البلاط البابوى ، لم يشأ أن يتبع القاعدة المرعية ، وهى إيفاد مندوب من قبله ليشرح وجهة نظره . بل بادر فى الحال بالاستيلاء على « أڤينيون »

* * *

ولقد أثر عناد هذا الملك الشاب فى الدول الأخرى ، فأخذت تخشى بأس فرنسا وتحسب حسابها واستغل ليون وزير الخارجية الهمام هذه الفرصة فعمل على توطيد السياسة التقليدية التى ترمى الى تقطيع أوصال الشعوب الأجنبية ، وفصم عرى الامبراطورية الألمانية عن طريق عقد محالفات مع الأفراد المختلفين الذين يؤلفون القوة الجرمانية الهائلة ، وترتب على ذلك أن اصبح ملك فرنسا يتمتع بسلطة ونفوذ فى جرمانيا أكثر من أمبراطورها نفسه .

على أن نفوذ ملك فرنسا وسلطانه الذى بلغ هذا الحد لم يثر فى بعض الشعوب أدنى اهتمام أو تقدير أو خوف ولاسيما شعوب البربر (الطوارق) فى شمال أفريقيا ، فإنهم كانوا خاضعين اسما لسلطان تركيا ومستقلين فعلا تحت سيطرة رؤساء طغاة مستبدين ، وكانوا يشتغلون بالقرصنة ، ولم يعرفوا لهم صناعة غيرها يعيشون منها ، فكانت سفن باى تونس ، و داى الجزائر تجوب البحر الأبيض المتوسط ومنه تتسلل إلى المحيط الأطلنطى وإلى بحر المانش فتستوقف السفن التجارية الضعيفة الحرابة ، وتعمل فيها السلب والنهب ، أو تستولى عليها وتأسر ملاحيهـــا ، مما أدى إلى أن أصبح الألوف من البحارة المسيحيين من الفرنسيين أو من رعايا الدول الأوروبية يعيشون فى أرض أفريقيا المحرقة أو يجدفون فى سفن آسريهم وهم يضربون بالسياط التى تمزق أجسادهم .

هال لويس الرابع عشر هذا العمل الشنيع ، فقرر أن يقضى على أوكار القرصنة التى أثارت الفزع والألم والحزن فى أوربا ، فرأى أولا أن يرسل حملة تأديبية إلى ساحل بلاد الجزائر ، ولما وصلت الحملة حاول الجنود النزول إلى الشواطىء ، ولكن البربر كانوا أحسن سلاحا وأقوى عتاداً ، كما لم يستطع الجنود الفرنسيون احتمال مناخ هذه البلاد فلم يحاولوا التوغل فى البلاد وأخذوا يضربون المدن الساحلية بالمدافع ويغرقون سفن داى الجزائر وباى تونس ، وحاصروا السواحل الإفريقية .

تمت هذه العمليات بكل سرعة ونشاط . فخاف الداى على مصيره وخشى بأس فرنسا فصمم على عقد معاهدة مع مليكها ، وأخذ يبحث الموضوع فوجد بين الأسرى ضابط فرنسى يدعى « بابينيه » فبعث به إلى فرنسا بعدأن جعله يقسم له أنه سيعود إذا فشلت مفاوضاته فى عقد المعاهدة المرغوبة ، وهدده بقتل ستماية أسير فرنسى من رفاقه إذا لم يبر بوعده .

ورحل « بابنيه » إلى فرنسا ولما وصل اليها مثل بين يدى الملك فى سان جرمان وعرض عليه مقترحات الطاغية الافريقى وأحاطه علما بتهديداته ، وغضب لويس الرابع عشر وقرر الا يتفاوض وطلب إلى بابينيه ألا يعود كما وعد لأن الموت ينتظره هناك بلا شك ، ولم يوافق بابينيه لأنه قد اقسم بأن يعود من جهة ومن جهة أخرى فكر جدياً فى مصير زملائه فى الأسر ، الذين هددهم الداى الجبار بالإعدام ،ذا لم يعـــد .

ورجع بابينيه إلى الجزائر وأبلغ الداى بكل ماحدث . فغضب لفشل المفاوضات وقطع رأسه . على أن مصرع هذا البحار البرىء لم يذهب هباء فقد أثار ضباط وبحارة السفن التى تحاصر سواحل تونس والجزائر فنشطوا فى القتال بتأثير الغضب الذى تملكهم وهاجموا المدن وضربوها ، فسلمت لهم حامياتها كما استسلم البربر فحرروا الأسرى الفرنسيين وكانوا يبلغون ثلاثة آلاف رجل ، وذلك فى سنة ١٦٦٧ .

وبذلك قضى لويس على القرصنة ، وأضاف لمجده مجدا آخر .

فى هذا الوقت توفى فيليب الرابع ملك اسبانيا وخلف لوراثة العرش طفلا ضعيفاً أنجبه من زواجه الثانى .

كانت اسبانيا تملك مستعمرات عظيمة فى امريكا الجنوبية وكان لها فى أوروبا شبه جزيرة ايبيريا والأراضى الواطئة (باچيكا وهولاندا) واقليم الفلاندر فى شمال فرنسا

عقب وفاة فيليب طالب لويس الرابع عشر اسبانيا بهذه المقاطعات الفلمنكية من ميراث « شارل لتميرير » ، على اعتبار أنها تخص زوجته مارى تيريز دوتريش .

ولكن تقاليد هذه البلاد كانت تقضى بأن يكون الوارث من الزواج الأول وحده دون الزواج الثانى حتى ولو آلت الوراثة إلى سيدة . وكان هناك تنازل مارى تريز فى حقوق أبيها بمقتضى صلح بيرينييه ، وكان هذا التنازل متوقفاً على أن يدفع لها بائنة كبيرة (دوطة) . وبما أن هذه البائنة لم تدفع إطلاقاً ولم يهتم أحد بالمطالبة بها ، فقد أعلن لويس الرابع عشر أنه سيستولى على مايجب أن يؤول اليه شرعا ، ولم يفعل ذلك عن رغبة وقتية أو نزعة معينة أو تعطش للغزو وإنما لسلامة بلاده ، فإن حدود فرنسا المتاخمة للأراضى الواطئة كانت ضعيفة ومزعزعة ، وكان المنطق يقضى بأن يضم إلى فرنسا البلاد التى يرتبط سكانها مع فرنسا بروابط الجنس واللغة والعادات .

فمن أجل ذلك ، نشبت الحرب التى أطلق عليها اسم حرب الأيلولة

(١٦٦٧ — ١٦٦٨) وكانت حرباً قصيرة الأجل انتصرت فيها فرنسا انتصاراً مبيناً .

رأى لويس الرابع عشر أن يكون على رأس جنوده ، فخرج من قصر سان جرمان بكل مظاهر العظمة والجلال كما لو كان يقوم برحلة عادية للهو والمتعة ، مستصحباً معه أسرته وحاشيته .

واستقبل الشعب الأسرة المالكة فى كل مكان بحفاوة بالغة وهتافات مدوية .

وعندما بدأ القتال ، أبدت بعض الحاميات الإسبانية مقاومة عنيفة ، فما كان من الملك إلا أن ترك الملكة والأميرات فى مكان أمين ، وامتشق حسامه وارتدى درعه ووضع الخوذة على رأسه وظهر فى وسط جنوده ، فألهب حضوره بينهم حماسهم ، وقوى عزائمهم ، وكان هو نفسه محارباً مقداماً تعلم الفنون الحربية على يد تورين ، وفوبان ، فلم يمض وقت طويل إلا وسلمت حامية «تورناى» فحيا الشعب الملك الظافر أجمل تحية ، وحدث مثل هذا فى « دواى » ولم يبق إلا موقع واحد فى المنطقة وهو « ليل » .

كانت هذه المدينة الوالونية العظيمة قوية التحصين ، يتولى الدفاع عنها خمسة آلاف جندى نظامى وخمسة عشر ألفاً من المتطوعين المدربين على حمل السلاح ، وعمد الكونت دى برواى قائد الدفاع عن المدينة إلى إثارة سخط طبقات الشعب ولاسيما طبقة «البورجوازى» (أصحاب الأعمال والأموال) على فرنسا . وأدخل فى روعهم أن

لويس الرابع عشر سيقضى على الحرية التى يتمتعون بها وبهذه الدعاية استطاع أن يملك زمامهم فانقادوا اليه واقسم النبلاء أمامه بأنهم يؤثرون الموت على التسليم للفرنسيين .

وكان سكان ليل وحاكمها شديدى الثقة بقوتهم ومناعة مدينتهم فوضعوا أمام دار البلدية جوادا من الخشب وأمامه العلف وبجواره لافتة كتبت عليها هذه العبارة « سيأكل الجواد العلف قبل أن تسلم المدينة » .

ولم تمنع تحصينات المدينة لويس الرابع عشر عن العمل فضرب الحصار حولها ، ولكن حاكمها بعث برسول الى الملك يطلب منه أن يختار لاقامته الشخصية أحد المنازل الجميلة فى الضواحى ، وعين له منزلا منها لكى يمنع جنوده من اطلاق النار نحوه .

أمر الملك رسول الحاكم بإبلاغ شكره وتحياته إلى الحاكم على كرمه وحفاوته وصرح له بأنه سيقيم مع جنوده فى كل خيمة وكل معسكر .

كانت مقاومة « ليل » عنيفة وقاسية ، وكان الملك يمضى النهار الخنادق ، وذات يوم وصل الى مكان فى خطوط القتال شديد الخطورة لتعرضه المباشر لنيران الأعداء ، فنصحه رجاله أن يتراجع محافظة على حياته وحياتهم ، وتقدم منه دوق « شارو » قائد حرسه العجوز وهمس فى أذنه قائلا « اعد النبيذ وعليكم أن تشربوه » .

فانصرف الملك من مكان الخطر وواصل أعماله فزار الجنود وفتش

المعسكرات بدقته المألوفة . ولما عاد إلى مقره فى ضاحية « بيفواك » عانق شارو وهز زراعه بقوة لأنه عرف كيف يفضل الشرف على الحياة واستمر الحصار العنيف طويلا . وذات صباح من شهر اغسطس سنة ١٦٦٧ دخلت الجنود الفرنسية مدينة ليل المنيعة تتقدمها الموسيقى وحملة الأعلام . فاستقبلها رجال الدين فى ميدان البلدية ، حيث كان الجواد الذى لم يأكل العلف بعد .

وأخذ « فوبان » يعمل على تقوية المواقع التى يصل اليها جنوده ، وأتم سلسلة من الحصون القوية تضمن لفرنسا السلامة والأمان

واستقبل سكان الفلاندر لويس الرابع عشر بكل حفاوة واكرام فوعدهم بأن يحافظ على امتيازاتهم وحقوقهم .

وكان الأسبان يرثون فى فرنسا عن « شارل لتميرير » مقاطعة فرانش كونتيه بمدينتيها الكبيرتين بيزانسون ودول . فصمم لويس على غزوها أيضا .

وكانت حامية بيزانسون تتألف من ألفى جندى أسبانى أبدوا مقاومة عنيفة كما قاومت حامية دول بكل شدة حتى اعتقد أنه من العسير الاستيلاء عليها ، ولكن الكونت « دى جرامون » استطاع أن يصل إلى الميدان الرئيسى متنكرا ، فاتصل بالبرلمان وأعضاء المجلس البلدى وعرض عليهم أنه من مصلحتهم التسليم إلى الملك المحافظة على كل شىء . فاقتنعوا برأيه وسلموا ، ولم تلبث المدن الأخرى فى المقاطعة أن سلمت أو احتلت .

ومما يجدر ذكره أن مدينة « جراى » كانت تريد التسليم ، ولكن طبقة البورچوازيه كانت تخشى القائد الأسبانى فظهر الأب دى ڤانڤيل شقيق سفير أسبانيا ، وكان رجلا غريب الأطوار حقا ، فنظم ثورة فى المدينة أجبرت قائدها على التسليم .

وبعد خمسة عشر يوما من قيام الحملة كان قد تم اخضاع كل مقاطعة فرانش كونتييه .

وانتهت الحرب بمعاهدة اكس لاشابل فى ٢ مايو سنة ١٦٦٨ التى منحت فرنسا امتيازات عظيمة وضمنت لها فى الشمال حدودا محصنة منيعة .

وعكف الملك ووزراؤه على تنظيم الأملاك الجديدة التى ضمت لفرنسا ولما كانت فى الأصل فرنسية قلبا ولغة ، فقد اندمجت بسهولة مع الدولة الكبرى .

أوروبا بعد معاهدة اكس لاشابل

توفى عرش أسبانيا بعد فيليب الرابع ابنه الضعيف تحت رعاية أمه وهى نفسها كانت طبقا للنظام والعادات الأسبانية تحت سيطرة رجال الدين . وأخذت الدولة فى الضعف والانحلال ، وساهمت الهزائم الأخيرة بنصيب كبير فى اضعاف منزلتها بين الأمم .

وكان أمبراطور ألمانيا عديم الهيبة وقليل النفوذ فى أمبراطورية شاسعة مقسمة إلى مقاطعات لاحصر لها مشتبكة فيما بينها بحروب مستمرة يشنها الأمراء لأسباب سياسية ودينية ، ومهددة بالأتراك العثمانيين الذين وصلوا إلى أبواب ڤينا ، حتى طلب الأمبراطور من

ملك بولونيا الدفاع عنه — فى حين أن لويس الرابع عشر كان يتمتع فى ألمانيا بسلطة كبيرة وله فيها مساعدون وأنصار أقوياء .

وكانت انجلترا تحت حكم شارل الثانى ، قد استطاعت أن تحافظ على قوتها التجارية ، ولكنها أخذت تضعف من الناحية السياسية ، لأن شارل الثانى ، وهو من أسرة ستيوارت كان فى خلاف مستمر مع البرلمان ، لأنه كان يتلقى أموالا من ملك فرنسا — فأثر أن يبقى حليفا للويس الرابع عشر ، ولو أن الشعب الإنجليزى كان عدوا للفرنسيين بدافع الحقد الموروث . فلكى يحافظ شارل على عرشه كان يتظاهر أحيانا العداء لفرنسا ، وهو يرتعد خوفا من فقد الاعانات التى يتلقاها منها .

وأما هولاندا فكانت مؤلفة من مقاطعات سلخت عن أسبانيا ، وقد أصبحت جمهورية ، أو بمعنى أدق عبارة عن اتحاد من جمهوريات صغيرة بورجوازيه — بلاد تجار أغنياء لأنها كانت تملك أسطولا عظيما يسمح لها بالتجارة فى كل أنحاء العالم ، وهذه البحرية التجارية معتمد على حماية أسطول حربى هائل ، فكثر فيها الأغنياء الذين لم ينسهم المال الوفير من التمسك بالفضائل الدينية والأخلاق القويمة — وقد أقبل أبناء تجار امستردام والمدن الناشئة الأخرى على الوظائف العسكرية بدافع الغرور وحب الظهور ، وإنما كانوا يهملون واجباتهم لأنهم كانوا يتركونها إلى مساعدين غير أكفاء ، ومع هذا بقيت هولاندا من أعظم دول أوروبا ثروة ونشاطا ونفوذا .

وأظهرت هولاندا فى كثير من المناسبات عداءها السافر لفرنسا

ولو أنها كانت حليفة لها يوما ما — فرأى لويس الرابع عشر أن الوقت قد حل لاخضاعها وإنما كان لزاما عليه قبل الاقدام على هذا العمل التأكد من حياد بريطانيا ان لم يكن مساعدتها .

وقام بدور الوساطة بين بلاط فرساى و بلاط سان جيمس سيدة فاتنة لبقة هى الأميرة هنريت أخت ملك انجلترا وزوجة شقيق ملك فرنسا .

وذهبت الأميرة إلى لندن واستطاعت أن تؤثر على شارل الثانى وحصلت منه على وعد أكيد بأن الانجليز لايساعدون الهولنديين فحسب بل ويحاربون فى صفوف الفرنسيين فكان هذا انتصارا ديبلوسيا عظيما للأميرة الشابة اغتبط له ملك فرنسا أيما اغتباط .

وأخذت تزهو بانتصارها وجمالها وغمرها الملك بكل عطفه ورعايته واهتمامه حتى أنسته زوجته الملكة الخجول — ولم يمض وقت طويل على هذا الحال حتى ذاع الخبر فى أرجاء فرساى أنها توفيت فعم الوجوم والحزن وشاع بين الحاشية أنها ماتت مسمومة ، لأنه فى ذلك الوقت كثر استعمال السم لقتل الناس فكثر الحديث عن السموم التى أطلق عليها اسم مسحوق الوراثة ، وحدثت حوادث من هذا القبيل فى كل مكان . واتهم بالجريمة أصدقاء دون دورليان ، ولكن التشريح الذى اشترك فيه أطباء باريس وأشهر الجراحين الانجليز أثبت أن الوفاة طبيعية .

تأثر الملك كل التأثر وشاركه فى شعوره كل البلاط ، لأن الأميرة كانت بهجة الحفلات . أما زوجها فقد أظهر فلسفة غريبة فى التعبير عن حزنه .

الباب التاسع

لويس الرابع عشر العظيم

كان لويس الرابع عشر يعرف النظام بكل معنى الكلمة . وكان يكره أن يتدخل فى شئون الدولة أى فرد من أسرته أو أى شخص لايحترف السياسة على الأخص السيدات ، ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا مرة واحدة عندما كلف الأميرة هنريت الانجليزية بالمفاوضة مع أخيها ملك انجلترا فى موضوع حيادها عندما تعلن فرنسا الحرب على هولاندا ، وقد نجحت الأميرة فى مهمتها ، ومع أنها لم تعيش الا قليلا بعد هذا النجاح إلا أن ملك انجلترا تمسك بالعهود التى قطعها على نفسه وعقد محالفة مع ملك فرنسا .

وكان ملك فرنسا مطلعا على الدسائس التى يدبرها ضده الهولنديون لأنهم إذ يعتمدون على التجارة كانوا ينظرون بكل خوف وحسد الى نمو التجارة الفرنسية ومنافستها لهم ، كما أن اتساع الملاحة البحرية الفرنسية وإزدياد قوة الأسطول الفرنسى ستؤدى حتما الى الاستغناء كلية عن السفن الهولندية فى استيراد المواد التى تحتاج اليها من الخارج وتصدير منتجاتها إليه .

فاذا ما جاهرت هولاندا بالعداء لفرنسا فانها يجب أولا أن

تضمن أن تنحاز اليها نصف أوربا على الأقل لأنه من الواضح أنها لا يمكن أن تجازف بالهجوم قبل أن تعقد معاهدات مع حلفاء لها

كان لويس على علم بكل نوايا هولاندا ، وزيادة على ذلك كان يعرف تماما أن عرش شارل الثانى مزعزع ، وأن حكم آل ستيوارت على وشك الزوال ، وفى هذه الحالة تتفاقم الأحوال ولا يجد العون الذى وعده به شارل هذا ، فرأى بثاقب نظره أنه من الأصوب أن يبدأ بالهجوم . فأعلن الحرب على هولاندا فى ٦ أبريل سنة ١٦٧٢

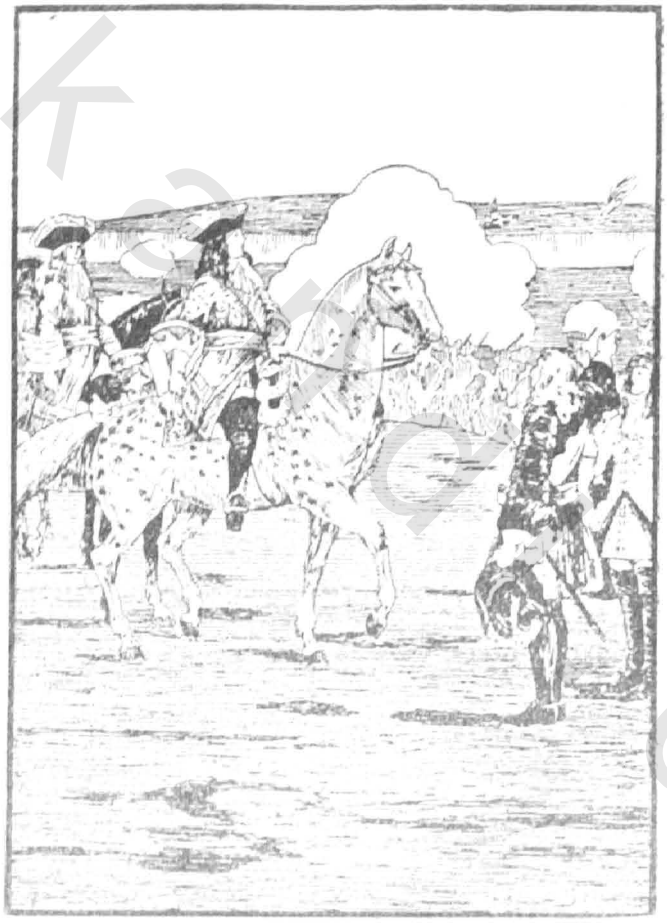

لويس الرابع عشر يجتاز الراين

وفى ٢٨ منه ترك سان چرمان وذهب على رأس جيشه الى القتال

بدأت الحرب بعمل جرىء خلدته اللوحات التذكارية والنقوش وسجلات العصر وكان هذا العمل عبور نهر الراين .

والراين نهر عظيم وعميق ، وعليـــه حصون قوية ، واجتيازه بلا شك عمل جرىء يشبه أعمال الأساطير . وقد اجتازه لويس تحت نيران الأعداء الحامية . فلا غرو إذا تغنى شعراء العصر بهذا الغزو الجرىء ـــ واعتقد أن احتلال الأراضى الهولندية من السهولة بمكان فتنتهى الحملة الحربية باحتلال امستردام فى أقصر وقت ، ولكن حدثت اخطاء حربيه عظيمة أدت الى تفاقم الأحوال .

تتألف هولندا من سهول عظيمة تحت مستوى سطح البحر تحميها سدود قوية وتوجد فى « ميودان » الأهوسة التى تحمى امستردام ، فكان لابد أولا من الاستيلاء بكل سرعة على ميودان مدخل ميناء امستردام . وتأخر لويس فى اعداد مواقعه وتحصينها لأنه كان يجهل قوة الجيوش الهولندية الحقيقة فلم يجرؤ على أن يجازف بجيشه فى بلاد العدو .

أشار الكونت دستراد الذى كان سفيرا لفرنسا فى هولندا الى خطأ العمليات الحربية فرأى الملك لويس الرابع عشر أن يعمل على عجم عود القوات الهولاندية ، فأرسل قوة استكشافية الى الشمال وصلت الى أترخت دون أن تصادف أدنى مقاومة ، وفى عودتها لم يشأ قائد القوة أن يقوم بأى عمل حربى قبل أن يعرف طبيعة المكان ،

فبعث بفرسانه الى كل الاتجاهات ووصلت فصيلة صغيرة منهم أمام ميدون فاستولى الذعر على كل المدينة ، ولما لم يجد النواب والقضاة حولهم جيشا للدفاع عنهم ، حملوا مفاتيح المدينة وسلموها الى الفرسان وهؤلاء أخذوها بكل زهو وفخار وتبعوا القضاة الى ميدان المدينة وهو المكان الذى أعد للاحتفال بتسليمهم المدينة وهناك احتفى بهم السكان ايما احتفاء وتغالى الأعيان فى اكرامهم ومجاملتهم لكى لا يلحق بهم أدنى ضرر من جيش الملك القوى الذى يتبعهم — وحل الليل ولم تصل القوات الفرنسية فاستعاد الأهالى شجاعتهم وبعثوا برسلهم الى امستردام فى طلب العون واستمروا فى اكرام الفرسان وتقديم الطعام والشراب لهم ، فلما ثملوا ألقوهم خارج المدينة ووصل جيش هولندى احتل ميدون وأمر القائد الشاب جييوم دورانج الذى انتخب الرئيس السياسى والحربى وهو لما يتجاوز الثانية والعشرين بفتح السدود فطغى الماء على السهول وأغرق هولاندا الوسطى وبذلك انقذت من احتلال الفرنسيين لها .

كانت محنة قاسية حلت بالهولنديين فقد ضحوا بأغنى المراعى والأراضى ، وإنما قبلوا هذه التضحية من أجل المحافظة على استقلالهم وأقبلوا على الانخراط فى سلك الجندية والتدريب على الحرب والقتال على قدر الإمكان وهكذا نشأ تحت حماية البحر جيش برى قوى ، وظهر فى بادىء الأمر أن الحرب تسير لمصلحة هولاندا وشجعها على المضى فيها انضمام الإمبراطورية وأسبانيا اليها .

لم يعبأ لويس الرابع عشر بهذا التحالف الموجه ضده ، ولم تهن عزيمته بل عمل على بث الهمة والنشاط فى جيشه فاستطاع أن يحرز انتصارات باهرة على الحلفاء واستولى بنفسه على « ما يسترخت » وهو موضع حصين هام ، ولو أنه فقد فى هذا القتال قائده المغوار دارتنيان ، وسجل تورين انتصارا مبيناً فى الألزاس ، فكان أن انتقل البلاط الفرنسى كله إلى مسرح الحرب ، وتحمل فى رحلاته كثيرا من الصعاب والمشاق وصفتها إحدى الأميرات فى مذكراتها التى نقتطف منها مايلى :

كثيرا ما كانت الملكة والأميرات والسيدات تقنعن بالإقامة فى الأكواخ الحقيرة الخربة أو فى المنازل المهجورة ، وذات يوم أمكن بكل صعوبة العثور فى مدينة رينوفيليين على مكان لهن فى قصر الكونت « دى لاريبوبيير » ووصلت الأسرة المالكة إلى القصر فى الليلة التى فقد فيها صاحبه أحد أقاربه ، وطبقاً لعادات البلاد تستمر الصلاة الجنائزية إلى وقت متأخر من الليل ، وحرص صاحب القصر ألا يحرم من شرف إيواء الملكة ، فوضع بسرعة الجثة فى قطر فى الغرفة التى خصصها لمبيت الملكة ، فقضت ليلتها بجانب هذا القطر دون أن تعرف ما يحويه .

وكانت الملكة تيريز دوتريش لاتهتم سواء فى الرحلات أو فى القصر بضرورة توفير وسائل الراحة والترف . فيكفيها أن تلازمها وصيفتها الأسبانية « لامولينيا » لتعد لها طعام بلادها الأصلية الذى تفضله على

أصناف الأطعمة الفرنسى ، وبذلك تكون راضية كل الرضا .

ولقد ساهمت الأحوال الجوية السيئة فى عرقلة سير الجيوش الفرنسية وكأنما السماء حالفت الهولنديين أيضاً فكانت تفتح أفواهها كالقرب وتصب عليها أمطارا غزيرة مدرارة فكان ميدان العمليات الحربية مغمورا بالمياه مما جعل نقل المدافع وعربات المؤن والذخائر من أشق الأمور ، ولكن بفضل تنظيمات لوفوا كان كل شىء يسير دون مشقة ، فلم يعوز الفرق المحاربة أى شىء وكانت المدافع والإمدادات تصل إلى الميادين فى الوقت المطلوب ، وكان هذا موضع فخر الفرنسيين ، وثقتهم بالنصر النهائى ، ومحل سخط وحنق الأعداء

وقبل انتهاء الحملة عادت الأسرة المالكة إلى فرساى ، وبعد وصولها رأى تورين قائد الجيش التوجه لزيارتها فى باريس ، ورحل من الالزاس فى موكب من مواكب النصر الحافلة .

فى أثناء غياب تورين عن مقر قيادته كان « مونتيكوكولى » قد تولى قيادة جيوش الأعداء القوية ، فنظم خطوطه ومواقعه ، فلما عاد تورين إلى مقر قيادته وجد أمامه عملا شاقا فدارت معارك طاحنة على الراين ، واستبسل تورين وجيشه فى الحرب حتى أمكنه أن يحاصر جيش خصمه القوى ، وقال عندئذ جملة لها معناها ولم يكن مخطئاً فيها : « لقد أوقعتهم فى يدى ولن يستطيعوا الإفلات منها » .

رابطت القوات الفرنسية أمام « سالزباخ » ، وبينما كان القائد

الفرنسى يتفقد مواقع البطاريات صوب نحوه الأعداء نيرانهم بكل قوة من كل حدب وصوب ، ولم يعبأ بشىء واستمر فى عمله ، فأسرع إليه أحد مساعديه وحذره قائلا : إرجع عن طريقك فان النار تصوب إلى المكان الذى تتجه اليه » . أجاب الماريشال تورين : نعم ، أنت على حق فانى لاأريد أن الق حتفى اليوم .

وبينما كان يتأهب للرجوع قدم الجنرال « دوسانت هيلير » قائد المدفعيـــة ممسكا قبعته فى يده ، ورجاه أن يلقى نظرة على إحدى البطاريات ، وفى هـذه اللحظة أصابت الماريشال رصاصـة طائشة ، فأصابت منـه مقتلا ، كما أطاحت بذراع القائد التى كانت تحمل القبعة .

وتحامل الماريشال على نفسه وحمله جواده إلى مقر قيادته ، فلما رآه ضباط أركان حربه منحنيا على سرج جواده ظنوه مصابا بجرح بسيط وأسرعوا نحوه يستوضحونه الأمر ، ولـكنه فتح عينيه وأغمضهما مرتين ثم لفظ النفس الأخير ، فحملت جثته بين الحزن الشامل وصاح الجنود قائلين : توفى أبونا البار . لقد هلـكنا .

وعندما أبلغ جندى هارب من الخدمة هذا النبأ إلى مونتيكوكولى قائد جيوش الحلفاء اغتبط كثيرا ولـكنه بعد أن فـكر قليلا خلع قبعته احتراماً لخصمه المتوفى وقال لمن حوله : لقد مات رجل يشرف الرجل .

لم يحزن الشعب الفرنسى على رجل من قبل كما حزن لوفاة تورين

ونقلت جثته إلى باريس حيث خيم الحزن على الجميع ، فكان كل فرد فيها يعتقد أنه فقد أعز شخص إليه ، وكان الملك أشدهم حزنا وأسى وأمر بأن يكرم قائده فأقيمت له جنازة شعبية هائلة ودفن فى مقبرة الملوك فى سان دنيس .

لم يستطع ضباط تورين مواصلة القتال بشجاعة وصبر كما كانوا معه ، فكان لزاما أن يتولى القيادة قائد جرىء حازم فأسندت إلى كوندیه الذى كان خصم تورين فى حرب الفروند ، كما عاد الملك إلى القتال وسار على رأس الجيش ملهباً حماسه فاستولى على فالنسيين ، وجاند ، وابيير ، وفى نفس الوقت أحرز الماريشال دى لوكسمبرج انتصارات حاسمة كما قهر «دوكين» أسطول الأعداء القوى .

وانتهت الحرب بصلح «نيمبج» سنة ١٦٧٨ الذى وطد السلام فى كل أوربا ومنحت باريس الملك لقب «العظيم» وأصبح أعظم ملك فى أوربا فى عصره فقد بلغ أعلا ذرى المجد .

وذاعت شهرة لويس الرابع عشر فى أقصى دول العـــالم فأخذ رؤساؤها يترددون اليه ويعملون على توطيد علاقاتهم معه فكانو يبعثون بسفرائهم إلى فرساى ليعبروا عن إعجابهم وولائهم له ، حتى إن ملوك الزنوج فى أفريقيا وملك سيام وقيصر روسيا أرسلوا مندوبين يحملون اليه الهدايا الثمينة التى تنم عن الإخلاص والتقدير . وكانت تقام لهذه الوفود الأجنبية حفلات استقبال وتكريم على غاية الروعة والأبهة بقصد التأثير فيهم حتى ينقلوا إلى دولهم صورة ناطقة عن

عظمة فرنسا فيكونوا خير رسل للإشادة بمجدها والتحدث عن قوتها وجاهها ، وتأثر الملك أيضا بهذه المظاهر حتى اعتقد أنه يستطيع أن يحقق كل ما يطرأ على مخيلته وأن لا شيء يمكن أن يقف فى طريقه ليحول بينه وبين ما يريد .

وأظهرت جنوا فى وقت ما عداتها لفرنسا فأمر لويس الرابع عشر بتدمير المدينة وحتم أن يأتى الدوج بنفسه إلى فرساى ليعلن استسلامه وخضوعه ولم يحدث إطلاقا أن ترك دوجات جنوا مقر حكوماتهم لأن دستور الجمهورية يمنعهم من مغادرتها إلى الخارج لأى سبب كان ، ولكن هذا الدوج رضخ لمشيئة ملك فرنسا حتى لا تتدمر المدينة كما امر فرحل إلى فرساى حيث استقبل بكل احترام وإكرام ، ورحب به الملك بنفسه كل ترحيب فتفاهما وزال كل خلاف وعبر الدوج للملك عن منتهى ولائه وإخلاصه ، وبعد أن خرج من غرفة الملك سأله أحد رجال حاشية فرساى عما حاز إعجابه فى هذ القصر الهائل .

فأجاب الدوج بكل بساطة قائلا : وجودى فيه ..

وأخذ لويس الرابع عشر يبحث فى السجلات والوثائق عن الاقطاعيات التى كانت تملكها فرنسا ولو من أجيال بعيدة وسلخت عنها والتى يعتقد أن اعادتها لفرنسا ضرورى لتوطيد الأمن والسلام على الحدود ، وبكل سهولة اعلن ضم مدينة استراسبورج العظيمة إلى فرنسا ، ويعتبر هذا الضم أعظم كسب لفرنسا لأنها استولت على العاصمة الطبيعية للإلزاس دون أن تطلق رصاصة واحدة ، وبعد ذلك عمل

ڤوبان على تقوية حصونها حتى يسهل الدفاع منها وبعد أن أتم عمله قال بزهو وفخار « لقد أصبحت فرنسا ممنوعة على الألمان »

وبقيت دولة فى اوروبا لم يرنو اليها الملك ببصره بعد ، وهى ايطاليا وبعد بحث واستقصاء وجد أنه لابد وأن يحتل مواقع معينة لكى لايقال عنه انه ليست له املاك فى ايطاليا وهذا يعتبر فى نظره عارا أو ضعفا يجب القضاء عليه لكى يخلو من أى نقص أو نقطة ضعف ، فقرر أن يستولى على مدينة « كاســـال » وكانت تخص « دوق مانتوا » .

وكان هذا الدوق فى حاجة الى مال فرأى أن يبيع المدينة، ووجد لويس الفرصة لتحقيق غرضه فقرر شرائها ودفع سرا مبلغا كبيرا إلى وسيط يدعى ماتيولى كان موضع ثقة دوق مانتوا ، ولكنه أخذ المبلغ لنفسه واطلع ملوك أوروبا على الموضوع ، فغضب لويس وصمم على الانتقام من هـذا الخائن بأن أرسل بعض رجاله ليختطفوه فنجحوا فى مهمتهم وأمكنهم أن يوقعوا الرجل فى شراك نصبوه له وقبضوا عليه وسجنوه فى قلعة « بينيرول » وفيما بعد نقل منها الى جزائر سانت مرجريت ومنها الى الباستيل .

وفى أوائل سنة ١٦٩٧ استقبل بلاط ڤرساى ابنة ڤيكتور اميدى دوق ساڤوا ، وكانت أميرة فاتنة ، قدمت الى فرنسـا لتعمل على توطيد السلام بين الدولتين وعلى عقد معاهدة تحالف وصداقة بينهما ورؤى أن السبيل الوحيد لتحقيق هذه الأغراض هو زواجها من دوق

بورجوينا أكبر أحفاد الملك الثلاثة وتليد فينيلون ، وكان فى سن الخامسة عشرة ، مجتهدا ، طيبا ، خجولا ، ومحبوبا من الجميع . وعليه تلقى أجمل الآمال وأعظمها

وكانت أميرة ساقوى فى الثانية عشرة ، شديدة الذكاء ، راجحة العقل ، ناضجة الوعى

ودهشت كثيرا عندما رأت قصر فرساى الساحر ، ولاحظ عليها رجال البلاط ذلك فتفانوا فى إرضائها ، وأقيمت تكريما لها حفلتان راقصتان كبيرتان ، ومثلت أمامها إحدى الأوبرات الجميلة ، وأقيمت ألعاب نارية بديعة ، ومع توخى الاقتصاد فى النفقات ، كانت الحفلات فى غاية الإبداع .

وأقامت الأميرة فى القصر تحت رعاية مدام دى مانتيفون ، لتتقن اللغة الفرنسية وتتعود على التقاليد والحياة الفرنسية .

وفى ٧ ديسمبر سنة ١٦٩٧ ذهب الملك وولى العهد ودوق ورجونيا وكل الحاشية فى الصباح الباكر الى الأميرة الصغيرة حيث كانت الوصيفات تقمن بتزيينها لحفلة القران فلما تم كل شىء سار الموكب فى الأروقة الى كنيسة القصر حيث عقد الكاردينال « كوازين » الزواج ، وخصص اليوم كله لإستقبال الزائرين والمهنئين ، وفى المساء

أقامت وليمة عشاء كبرى دعى اليها ملك وملكة انجلترا ، اللذان كانا قد خلعا عن العرش فذهبا إلى فرنسا وأقاما فى سان جرمان وكثرت الحفلات حتى كان من الصعب على الأميرة أن تواصل دراستها حسب المنهج الذى وضعته لها مدام دى مانتينون .